قسنطينة في جغرافية ورحلة الحسن الوزان

بورملة خديجة*‡

مقدمة: تشير العديد من الدراسات[1] إلى الأهمية الكبيرة التي تكتسيها كتب الجغرافيا[2] والرحلة[3] في التعرف على مظاهر الحضارة الإسلامية خلال العصر الوسيط، فهي تشكل مادة مصدرية هامة للمؤرخ والباحث لا تقل أهمية عن باقي المصادر، حيث اهتم الجغرافيون والرحالة بوصف المدن والأقاليم بالمناطق التي زاروها أو جمعوا معلومات عنها، فهي تعد من هذه الناحية غنية جدا بنصوص مطولة عن تحديد مواضع البلدان وتقسيماتها والتعريف بالمعالم الجغرافية والآثار الموجودة بها؛ وعلى الرغم مما تحويه هذه المصادر من معلومات قيمة تمس الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، إلا أن مجمل الأبحاث الحديثة لا تزال تستخدمها كمصادر ثانوية تستفيد منها أثناء التعريف بمنطقة أو مدينة معينة.

من المؤكد أن الجغرافيين ركزوا اهتمامهم على التعريف بالمناطق التي درسوها من ناحية الموقع والمظاهر التضاريسية والإنتاج النباتي والحيواني والمعدني، وكذا النشاطات المختلفة للسكان، إلا أنهم في غالب الأحيان يتوسعون في إيراد معلومات أخرى تكون في غاية الأهمية بالنسبة للمؤرخ، والتي قد لا نجدها في غيرها من المصادر، وبالتالي تشكل كتب الجغرافيا والرحلة مادة مصدرية يجب استغلالها في دراسة تاريخ بلاد المغرب عموما والمدن والأقاليم التابعة له على وجه الخصوص.

وموضوع "قسنطينة في جغرافية ورحلة الحسن الوزان[4]" يدخل ضمن هذا الإطار، أي دراسة لأهم جوانب الحياة بمدينة قسنطينة من خلال نص جغرافي محدد يتمثل في كتاب وصف إفريقيا للحسن بن محمد الوزان الفاسي، ومن هنا فإن الاعتماد على هذا المصدر لرسم صورة لمدينة قسنطينة وذلك خلال النصف الأول من القرن العاشر الهجري/ق16م يعتبر موضوعا في غاية الأهمية، فهذا النوع من المصادر- بخلاف المصادر الإخبارية التي تؤرخ مباشرة للدول والحكام وتهتم بالجانب السياسي أكثر من غيره من الجوانب- تحتوي على مادة تاريخية تمس بصفة مباشرة الحياة العامة بهذه المدينة، وهي المواضيع التي تتجه نحوها الدراسات الحديثة باعتبار أن المواضيع السياسية والعسكرية أصبحت مستهلكة.

1- كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان: يعد الحسن الوزان آخر المؤلفين الكبار في الجغرافيا العربية ببلاد المغرب، استطاع خلال رحلاته العديدة أن يتعرف بصورة جيدة على إفريقيا الداخلية والشمالية[5]، فقد ذاع صيته بين معاصريه بسبب الوصف الرائع الذي كتبه عن مدينة فاس العريقة[6]، ومن المؤكد أن الوزان نال حظا جيدا من التعليم الذي شمل مختلف العلوم الإسلامية

*باحثة في مخبر تاريخ الجزائر ومسجلة لتحضير دكتوراه في تاريخ المغرب الإسلامي- قسم التاريخ وعلم الآثار- جامعة وهران1 أحمد بن بلة.

المعروفة في ذلك العهد، وتمرّس زيادة على ذلك على فنون الإنشاء حيث أن أسرة بني وطاس قد عهدت إليه بثلاث سفارات هامة في جنوب المغرب الأقصى، وقد أفضت به إحدى هذه السفارات إلى مصر[7].

ولا شك أن المهام السياسية المسندة إلى الحسن الوزان، بالإضافة إلى النشاط الدبلوماسي والتجاري لأسرته هي التي دفعته إلى القيام برحلات عديدة داخل المغرب وخارجه، وتسجيل مشاهداته في مذكرات غدت على ما يظهر فيما بعد أساس كتابه الجغرافي[8]، فقد شجعته هذه الحياة النشيطة على القيام بأسفار أخرى خارج المغرب، فاغتنم فرصة تكليفه بسفارة لدى السلطان العثماني سليم الأول، فتوجه إلى المشرق عن طريق المغرب الأوسط والأدنى، حيث التحق بتلمسان بحاشية أبي عبد الله محمد الزياني، بعدها مر بمدينة الجزائر ونزل في ضيافة أحد أعيانها، ثم واصل سفره عبر المناطق الداخلية فمر بالمسيلة في طريقه إلى تونس حيث اتصل بالبلاط الحفصي وتعرف على أبي عبد الله محمد الحفصي، ليواصل بعدها سفره إلى القسطنطينية[9].

في سنة 932هـ أكمل الوزان كتابه "وصف إفريقيا" باللغتين العربية والإيطالية[10]، حيث مثل هذا الكتاب القسم الثالث من كتاب الجغرافيا العامة الذي ألفه الحسن الوزان باللغة العربية، ثم ترجم المؤلف هذا القسم إلى اللغة الإيطالية، أو اعتمد عليه في إنشاء وصف إفريقيا بالإيطالية إنشاء، وقد اعتذر المؤلف عما يمكن أن يقع في كتابه من أخطاء خاصة عند النقل، حيث مر عليه عندما ألف وصف إفريقيا عشر سنين لم يطلع أثناءها على أي كتاب من كتب تاريخ إفريقيا أو جغرافيتها، وإنما اعتمد على ما علق بذهنه مما رآه قبل هذه المدة الطويلة. وذلك ما يفسر خلو هذا الكتاب من نقول حرفية عكس ما هو الشأن عند غيره من الجغرافيين العرب[11].

وفي هذا الصدد يقول هو نفسه في خاتمة كتابه: "والحاصل أن ذلك ما شاهدته- أنا يوحنا ليون- مما هو جميل وجدير بالذكر في كل إفريقيا التي جبتها من جهة إلى أخرى، وقد أثبت بعناية يوما فيوما كل ما رأيته يستحق الذكر كما شاهدته، وما لم أشاهده أخبرني به من يوثق به إخبارا صحيحا كاملا، ثم رتبت هذه المذكرات بقدر استطاعتي، وألفت منها في الأخير كتابا عندما كنت بروما في العام الميلادي 1526 في العاشر من مارس"[12].

جاء كتاب وصف إفريقيا في عرض جمع بين كتب الرحلات وكتب المسالك، ومزج بين الطابع العربي التقليدي والأسلوب الغربي المستحدث، وقد عرف هذا الكتاب لدى الخاصة منذ سنة 1529م، واشتدّ الإقبال عليه باعتباره كتابا أساسيا في الجغرافيا الوصفية، ومرجعا مهما لتصحيح الخرائط وضبط المعلومات المتعلقة بشمال إفريقيا، ومما زاد في أهميته دقة وصفه وصحة ملاحظاته، وتحرّيه الصدق والنزاهة والحياد في كل ما أورده[13].

والمؤلف يذكر بعض المؤلفين الذين استقى منهم معلوماته ولكن من الذاكرة، من بينهم المسعودي والبكري والإدريسي والرقيق الذي يدين له المؤلف بالكثير من المعطيات التي اشتمل عليها كتابه[14]، إلا أن قيمة الكتاب لا تكمن فيما ينقله عن الغير بل في ملاحظاته الشخصية التي تشكل القسم الأساسي من مصنفه، الذي كان في الحقيقة فتحا جديدا بالنسبة لذلك العصر بسبب تقديمه لما يقرب من 400 اسم لمواضع جغرافية مع معطيات دقيقة وجديدة[15]، وهو ما يلاحظ على المعلومات التي خص بها شمال إفريقيا.

قسم الوزان كتابه وصف إفريقيا إلى تسعة أقسام أو كتب، في القسم الأول تدقيقات تتعلق بجغرافية إفريقيا العامة، ومناخها وخصائص شعوبها وأخلاقهم، وقد جزأ فيه إفريقيا تجزيئا عموديا باعتبار مميزاتها النباتية والاقتصادية أربعة أجزاء:

- بلاد البربر شمال سلسلة جبال الأطلس الممتدة من تخوم مصر شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا.
- بلاد الجريد جنوبي جبال الأطلس التي كان الرومان يطلقون عليها اسم نوميديا.
- الصحراء الكبرى المترامية بعد بلاد الجريد.
- بلاد السودان الواقعة وراء الصحراء[16].

وما يهمنا من هذه الأقسام القسم الأول أي شمال إفريقيا أو بلاد المغرب، والتي سمّاها بلاد البربر تقليدا للرومان، وقد كان هذا الجزء في مطلع القرن الهجري العاشر يشتمل على أربع ممالك:

1- مملكة مراكش المحتوية بدورها على سبعة أقاليم: حاحة، سوس، مراكش، جزولة، دكالة، هسكورة، تادلا.

2- ممكلة فاس المحتوية هي أيضا على نفس العدد من الأقاليم: تامسنا، فاس، أزغار، الهبط، الريف، كرط، الحوز.

3- مملكة تلمسان المشتملة على ثلاثة أقاليم: الجبال، تنس، والجزائر.

4- مملكة تونس التي تخضع لها أربعة أقاليم: بجاية، قسنطينة، طرابلس الغرب، والزاب[17].

2- مدينة قسنطينة من خلال كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان: إن المتفحص الأولي لكتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان يجد أن هذا المصدر قد تعرض لوصف شامل لبلاد المغرب خلال الفترة الأخيرة من العصر الوسيط، حيث قسّمها إلى أربعة ممالك حسب نظام الحكم السائد بها، وما يهمنا في هذا البحث مملكة تونس التي تنتمي إليها مدينة قسنطينة محل الدراسة، والتي وضعها الحسن الوزان ضمن الأقاليم الأربعة التي تنقسم إليها هذه المملكة، وأعطى لمدينة قسنطينة في مطلع القرن العاشر الهجري/16م أوصافا مفصلة مست جوانب مختلفة من مظاهر الحياة بها، لينتج لنا في الأخير نصوصا تاريخية مست بشكل مباشر وخاص الجوانب الطبيعية والسياسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية والعمرانية.

1- التعريف والموقع: يشير الحسن الوزان في بداية تعريفه لمدينة قسنطينة إلى أنها مدينة قديمة يعود بناؤها إلى الفترة الرومانية، وذلك في قوله: "مدينة قديمة بناها الرومان، وهذا شيء لا يمكن إنكاره نظرا لأسوارها العتيقة العالية السميكة المبنية بالحجر المنحوت المسود"[18].

وهو ما اتفقت عليه جميع المصادر الجغرافية السابقة له مثل كتاب المسالك والممالك للبكري، وذلك في قوله: "مدينة أولية كبيرة"[19]، وكتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي الذي نجد لديه أوصافا للآثار الموجودة بها، والتي يؤكد أنها تعود إلى الفترة الرومانية[20]، وكتاب الاستبصار في قول صاحبه: "مدينة كبيرة عامرة قديمة أزلية، فيها آثار كثيرة للأول"[21].

أما عن موقع المدينة وما يحيط بها من مظاهر تضاريسية، نجد لدى الحسن الوزان تفاصيل مهمة في قوله: "وهي واقعة على جبل شاهق ومحاطة من جهة الجنوب بصخور عالية، يمر عند قدميها نهر اسمه سوفغمار، والضفة الأخرى لهذا النهر محاطة أيضا بصخور، بحيث أن الشعب السحيق الواقع بين هذين الجرفين يستعمل كخندق للمدينة، بل هو أكثر نفعا لها من الخندق، وفي الجانب الشمالي للمدينة أسوار في غاية القوة، بالإضافة إلى أنها تقع في أعلى قمة الجبل، بحيث أن الصعود إلى قسنطينة لا يمكن إلا من طريقين صغيرين ضيقين، أحدهما إلى جهة الشرق والآخر إلى جهة الغرب"[22].

يؤكد هذا النص على حصانة المدينة من الناحية الطبيعية، حيث أن موقعها في أعلى قمة الجبل والنهر المحيط بها، يجعل من الصعب الوصول أو الدخول إليها، إضافة إلى أسوارها القوية، وهو ما يزيد من منعتها.

2- الجانب السياسي: في هذا الجانب من جوانب الحياة بمدينة قسنطينة نجد الحسن الوزان يتوسع في إيراد معلومات بشكل مفصل حتى أنه يستطرد في هذا الجانب على حساب ما تبقى من مظاهر الحياة بهذه المدينة، ولعل ذلك راجع إلى اختلاط الحسن الوزان بالحكام الحفصيين واطلاعه على الأمور الإدارية بدولتهم، حيث يحتوي وصفه لمدينة قسنطينة على تفاصيل كثيرة عن الحكام والأمراء الذين تولوها من قبل الحفصيين، وكيفية تسيير هذه المدينة من طرف هؤلاء، وما وقع خلال حكمهم من أحداث سياسية وعسكرية كان لها انعكاس على سكان المدينة.

وهكذا يضع الوزان مدينة قسنطينة في مطلع القرن العاشر الهجري/16م ضمن الأقاليم أو الإمارات التابعة لمملكة تونس أو لدولة الحفصيين، والمعروف أن حكام هذه المملكة كانوا يعهدون بتسيير دولة قسنطينة على حد تعبير الحسن الوزان إلى الابن البكر، وهو ما نجده في النص الموالي: "وكان من عادة ملوك تونس أن يعطوا قسنطينة لابنهم البكر، لكن الملك الحالي[23] أعطاها تارة لهذا وتارة لذلك من أبنائه، فقد عهد بها أولا إلى ولي عهده الذي توجه بجيشه لمحاربة الأعراب، رغبة منه في تحقيق أشياء عظيمة، لكنهم قتلوه في أول لقاء وحطموا جيشه كله، فولى الملك على المدينة ابنا له آخر اسمه عبد العزيز، كان شابا جائرا قاسيا معاقرا للخمر، فمات بسبب سرطان نخر جنبيه، ثم أعطاها لابن له آخر كان ما يزال

غلاما صغيرا أقرع، لوطيا، سكيرا جائرا، فثار عليه الشعب وحاصره في القلعة إلى أن أرسل إليه أبوه بعض الضباط فحملوه مغلولا إلى تونس، وألقاه أبوه في السجن... ثم عين الملك نائبا له على قسنطينة رجلا صالحا ابن أحد الموظفين الملكيين السامين اسمه فرح، كان مسيحيا وأسلم، فكان الملك يستعين به في أهم الأمور المتعلقة بالمصلحة والإدارة، فسر السكان بهذا النائب الأمين المتواضع في حكمه"[24].

وفي نص آخر من نفس الكتاب يستطرد الوزان في الحديث عن نائب آخر من نواب السلطنة الحفصية بقسنطينة، وهو أيضا مسيحي أسلم اسمه القائد نبيل؛ فيقول عنه: "وكان على جانب عظيم من الدهاء، فبث دسائس خطيرة بين السكان، حتى تمكن من تسيير المدينة كما شاء، بالإضافة إلى أنه دخل مساومات مع الأعراب المجاورين حتى أصبحوا يعيشون على حذر منه، مع أنهم كانوا يعدون من أنبل العرب بإفريقيا وأشدهم بأسا، ...وذهب الغرور بعد ذلك بنبيل إلى أن ضرب السكة باسمه من تلقاء نفسه، فكانت أفضل من سكة الملك... وانتهى الأمر بنبيل إلى ارتكاب مظالم شتى اتجاه الشعب، حتى ثار عليه في وقت كان مشتغلا في نوميديا بحصار مدينة تدعى بسكرة، فرجع مباشرة إلى قسنطينة لكنه لم يمكنه الدخول إليها، فاضطر إلى الذهاب إلى تونس مستنجدا بالملك الذي ألقاه توًا في غياهب السجن وفرض عليه غرامة قدرها مائة ألف مثقال. ولما خرج نبيل من السجن وأمده الملك بالإعانة التي طلب، ذهب ليضرب الحصار على قسنطينة، ودخلها بعد أيام بقوة الحيلة والسلاح، فأمر بإعدام عدد كثير من أعيان المدينة، الأمر الذي جعل السكان يثورون عليه من جديد، فحاصروه في القلعة وحارب محاصريه يوما، فقتل الكثير من أنصاره، واستولى عليه الحزن والغم إلى حد أنه مرض ومات بعد قليل"[25].

ويواصل الحسن الوزان في هذا النص قائلا: "فاستسلم رجال القلعة للشعب الذي دخلها ونهب قصر نائب الملك، ووجد فيه أشياء ثمينة ونحو اثني عشر ألف كيل "رودجي" من القمح، بالإضافة إلى ثلاثمائة جواد. وبعد هذه الأحداث، أوفد الملك نائبا إلى قسنطينة ليشرح للسكان أن جلالة الملك قد عفا عن كل ما ارتكبوه من الإساءة، فسروا بذلك إلا أنهم لم يرضوا أن يعين الملك بعد الآن نائبا عنه، ولذلك أرسل إليها الملك أبناءه بالتوالي كما ذكرناه آنفا"[26].

لكن ما يـــؤاخذ عليه الوزان في هذه النصوص هو عدم تحديـــده لتواريخ هذه الأحداث، ولا تحديده لاسم الملك الحفصي الذي زار على عهده قسنطينة، والاكتفاء بعبارة الملك الحالي، حيث يظهر أنه وقع في خلط بين الملك الحفصي الذي زار على عهده تونس، وبين سابقيه من ملوك بني حفص، وبالتالي وقع في خلط بين نوابه على قسنطينة، فعند تتبع تواريخ رحلاته، نجد أن الملك الحفصي أبـــو عبد الله محمد بن الحسن (899-932هـــ/1494-1526م) هو المقصود بكلام الحسن الوزان، وأنه بعث بأولاده كنواب له بمدينة قسنطينة في حين أن القائد نبيل تولى على مدينة قسنطينة أيام السلطان أبو عمر عثمان (839-893هـــ/1435-1488م)، ويظهر أن هذا القائد قد توفي سنة 857هـــ/1453م[27]، أي

قبل تولية السلطان أبي عبد الله، ولعلّ هذا الخلط يرجع إلى الفرق الزمني الكبير بين زمن الرحلة وزمن تأليف الكتاب، وهو ما أشار إليه الحسن الوزان في كتابه، وتمت الإشارة إليه سابقا.

ومن هنا ومن خلال نص الوزان نجد أن مدينة قسنطينة في نهاية العصر الوسيط، كانت تابعة من الناحية السياسية للدولة الحفصية، وأنّ ملوك هذه الدولة قد عهدوا لأبنائهم ولنواب عنهم بتسيير أمورها السياسية والإدارية، إلا أنها شهدت عديد الاضطرابات والتقلبات من هذه الناحية، ولعله انعكاس واضح لما كانت تعانيه الدولة الحفصية وهي في أيامها الأخيرة، إذ أصبحت الأقاليم التابعة لها مثل قسنطينة وبجاية تخرج عنها إلى يد نوابها في البداية، ثم إلى قوى أخرى أخذت تبرز في المنطقة، ممثلة خصوصا في الأتراك والإسبان في مرحلة لاحقة.

3- الجانب الاقتصادي: أولى الحسن الوزان هذا الجانب بدوره عناية خاصة، وهذا راجع إلى أن اهتمامات أغلب الجغرافيين والرحالة تنصب أو تتجه نحو الجوانب الطبيعية والاقتصادية والنشاطات المختلفة للسكان، وهكذا اتسمت الأوصاف التي وضعها هذا الجغرافي لمدينة قسنطينة من الناحية الاقتصادية بشيء من التوسع والتفصيل، حيث أشار في حديثه عن المدينة إلى الزراعة والمحاصيل الزراعية، والحرف المشهورة بالمدينة، وكذا التجارة والأسواق التجارية.

أ- الزراعة: تدل المعلومات التي أوردها كتب الجغرافيا على أن بلاد المغرب عموما هي بلاد ذات إنتاج زراعي وافر، تتنوع فيها المحاصيل الزراعية من منطقة إلى أخرى، حتى أن كل مدينة من مدنه بالإضافة إلى اشتهارها بإنتاج مادة معينة، تقوم بإنتاج مواد زراعية مختلفة، ولعل مدينة قسنطينة لا تخرج عن هذا الإطار، فهي إضافة إلى أنها كثيرة البساتين والمزارع، تتنوع فيها المحاصيل إلا أنها اشتهرت حسب ما أوضحته المصادر الجغرافية بإنتاج الحبوب[28].

وقد احتفظت هذه المدينة بمكانتها في المجال الفلاحي إلى نهاية العصر الوسيط، وهو ما يؤكده وصف الوزان لها في قوله: "والأراضي الزراعية المحيطة بالمدينة كلها جيدة خصبة، ويبلغ إنتاجها ثلاثين ضعف ما يزرع فيها، وتوجد أيضا في السهل على طول النهر بساتين في غاية الجمال، إلا أنها لا تنتج كثيرا من الثمار لأنهم لا يحسنون خدمتها"[29].

إلا أن هذا الأخير يبخل علينا بمعلومات كثيرة وردت عند بقية الجغرافيين والرحالة من سابقيه، حيث أنهم توسعوا أكثر في هذا المجال من حيث تعداد المحاصيل الزراعية للمدينة، وكيفية تخزين الحبوب بها، لكن تم الاتفاق على أن المدينة من هذا الجانب غنية جدا، وغالبا ما تنتج كميات كبيرة منها يمكن الاحتفاظ بها لمدة طويلة، أما فيما يخص عدم خدمة سكان المدينة للبساتين المنتشرة على طول النهر، فلعل هذا راجع إلى انعدام الأمن خارج المدينة، وانشغال السكان بالثورات الداخلية، وقد سبقت الإشارة في الجانب السياسي

إلى الثورات والفتن التي عرفتها هذه المدينة، وكيف تعاقب عليها في فترة وجيزة عدد كبير من نواب السلطان الحفصي، إضافة إلى الضرر الدائم من طرف الأعراب المجاورين للمدينة.

ب- الحرف: في هذا الجانب يبخل علينا الحسن الوزان بأي تفاصيل عن الصناعات أو الحرف التي اشتهرت بها مدينة قسنطينة في نهاية العصر الوسيط، ويكتفي عند حديثه عن الأسواق بالإشارة ولو بطريقة غير مباشرة إلى وجود الصناع والحرفيين بهذه المدينة، وذلك في قوله: "وأسواق المدينة عديدة حسنة التنسيق بحيث أن جميع الحرف فيها مفصول يعضها عن بعض، والقسنطينيون شجعان مقاتلون، خصوصا منهم الصناع"[30].

كما نستشف من عبارة أخرى عند حديثه عن تجار المدينة عن بعض الحرف التي كانت مشهورة بها، وهي صناعة النسيج أو الأقمشة، من خلال قوله:"وفيها عدد كبير من التجار الذين يتعاطون تجارة الأقمشة الصوفية المصنوعة محليا"[31].

وعلى الرغم من هذه الإشارات التي توضح النشاط الحرفي لسكان قسنطينة، إلا أن هذه المعلومات لا تفي بالغرض لتوضيح هذا النشاط بشيء من التفصيل، وعن كيفية تحويل المواد الخام إلى مواد مصنعة توجه مباشرة إلى التصدير.

ج- التجارة: أظهرت النصوص الجغرافية والرحلية كيف أن مدينة قسنطينة تقع في طريق الرحلة والتجارة من الغرب إلى الشرق ومن الشرق إلى الغرب، حيث شكلت خلال العصر الوسيط إحدى المحطات الهامة التي تستوقف الرحالة خصوصا عند أداء فريضة الحج، والأكيد أن المدينة ستستفيد تجاريا من هذا النوع من الرحلات، حيث غالبا ما يتوقف عندها الحجاج للتزود بالمؤن من أسواقها، كما تستوقف التجار لأنها تقع على الطرق التجارية الداخلية الخاصة ببلاد المغرب.

وهو ما تؤكده كتب المسالك والممالك مثل كتابات البكري والادريسي والتي وضعت مدينة قسنطينة كمرحلة من مراحل أهم الطرق الرابطة بين مدن المغرب الأوسط وبينه وبين بقية أقاليم المغرب، وكذا كتب الرحلة مثل كتابات العبدري[32] والبلوي[33] حيث جاءت هذه المدينة على طريق رحلتهم إلى المشرق، كما كانت في طريق رحلة الحسن الوزان في سفارته إلى القسطنطينية.

في حديثه عن التجارة بمدينة قسنطينة يبدأ الحسن الوزان بإشارة عابرة إلى الأسواق وتنظيم الحرف بها، لكنه لا يتوسع في إيراد أي معلومات تتعلق بتنظيماتها، ولا السلع المعروضة فيها، ولا إلى مكان السوق واليـــوم الذي يعقد فيه، وذلك في قوله: "وأسواق المدينة عديدة حسنة التنسيق بحيث أن جميع الحرف فيها مفصول يعضها عن بعض"[34].

هذا فيما يتعلق بالتجارة الداخلية للمدينة، أما عن التجارة الخارجية نجد من خلال كتابات الوزان أن تجار قسنطينة كانوا يركزون معاملاتهم مع كل من تونس وبلاد الجريد، وفي هذا الصدد يقول: "وفيها

عدد كبير من التجار الذين يتعاطون تجارة الأقمشة الصوفية المصنوعة محليا، وبعضهم يرسلون الزيت والحرير إلى نوميديا[35]، وكذلك يفعلون بالأقمشة، كل هذه البضائع تستبدل بالتمر والرقيق، ولا توجد مدينة إفريقية يباع فيها التمر بثمن بخس كقسنطينة، إذ يمكن الحصول على ثمانية أرطال أو عشرة من التمر بثلاث بايوتشيات[36] فقط"[37].

يستفاد من هذا النص أن مدينة قسنطينة كانت تقوم بتصدير منتجاتها المحلية المتمثلة أساسا في الأقمشة والزيت والحرير، وتقوم باستيراد التمر والرقيق، وأن هذه التجارة كانت تتم بشكل خاص مع نوميديا، حتى أن تجار هذه المدينة ينظمون قوافل تجارية سنويا إلى المناطق التي يتعاملون معها، وذلك في قول الحسن الوزان: "يجتمع أهل قسنطينة مرة في السنة في قافلة تذهب إلى نوميديا، يحملون إليها أقمشة الصوف المنسوجة في بلادهم، وشيئا قذرا يسمى الحشيش، ويصحبون معهم بعض الأتراك من حاملي البنادق، توقعا للأعراب الذين كثيرا ما يهاجمونهم، ويستأجرونهم بأغلى الأثمان"[38].

يشير الحسن الوزان إلى ظاهرة كانت لا تزال مستمرة منذ هجرة القبائل الهلالية إلى بلاد المغرب منذ منتصف القرن الخامس الهجري/11م وإلى غاية نهاية العصور الوسطى، وهي مضايقة الأعراب للتجار حتى أضحت الطرق التجارية الداخلية للمغرب غير آمنة مما كان يضطر التجار في النهاية إلى استئجار من يدافع عنهم خلال رحلاتهم التجارية، وهو ما كان يقوم به تجار قسنطينة أثناء تنظيمهم لرحلتهم التجارية السنوية سواء إلى بلاد الجريد أو غيرها من المناطق التي يتعاملون معها.

كما كان لتجار قسنطينة معاملات مع مملكة تونس باعتبار أن المدينة تعد أحد الأقاليم التابعة لها، وبالتالي لم يكن عليهم دفع أي مستحقات عند دخولها، وهو ما يؤكده الحسن الوزان في قوله: "لا يؤدي تجار قسنطينة واجبات الدخول إلى تونس، بل يؤدون عند الخروج منها ما قدره اثنان ونصف بالمائة، إلا أنهم يتضررون من هذا السفر أكثر مما يستفيدون، إذ تؤدي بهم متعة الفجور إلى تبذير معظم ما حصلوا عليه وإنفاقه على النساء العاهرات"[39].

ما يمكن استنتاجه من خلال دراسة النصوص التي أوردها الحسن الوزان في كتابه وصف إفريقيا فيما يتعلق بالنشاط الاقتصادي لمدينة قسنطينة في نهاية العصر الوسيط، أن هذه المدينة تعد مدينة زراعية كثيرة الخصب، تنتج محاصيل زراعية متنوعة، ويمارس سكانها العديد من الحرف لعل أهمها صناعة الأقمشة، وهم من جهة أخرى تجار نشطون سواء داخليا باحتواء المدينة على عدد من الأسواق الحسنة التنسيق، أو خارجيا عن طريق تنظيم التجارة الخارجية في قوافل سنوية تتجه خاصة إلى تونس وبلاد الجريد، حيث يذهبون بالأقمشة والحرير المحلي الصنع، ويعودون بالتمور والرقيق.

4- الجانب الاجتماعي والعمراني: أولى الحسن الوزان في كتابه وصف إفريقيا كلا من الجانبين الاجتماعي والعمراني عناية خاصة، ففي هذا الكتاب إشارة إلى عدد سكان المدينة خلال بداية القرن

العاشر الهجري/16م، وإشارة إلى أهم المرافق الموجودة بالمدينة، وكذا أهم المظاهر العمرانية سواء القديمة أو الحديثة.

في البداية يحصي الوزان عدد الأسر بمدينة قسنطينة فيقول: "تستطيع قسنطينة نظرا لحجمها أن تضم ثمانية آلاف كانون، ولها موارد كثيرة، وهي متحضرة جدا"[40]، لكن هذا العدد يعتبر كبيرا نسبيا بالعودة إلى تلك الفترة.

كما في نصوص الوزان عن مدينة قسنطينة إشارة إلى بعض العادات أو المعتقدات، وهي تتعلق بنساء المدينة بصفة خاصة، والتي يقول عنها: "وعلى مسافة نحو ثلاث رميات حجر من المدينة، يوجد حمام مكون من عين ماء ساخن يتدفق بين أحجار ضخمة ويعيش فيها عدد كبير من السلاحف تعتقد النساء أنها شياطين، وإذا اتفق أن أصيبت إحدى النساء بالحمى أو غيرها تقول إن سبب ذلك يرجع إلى السلاحف، وللتخلص من الداء تذبح حينا دجاجة بيضاء تضعها في إناء بريشها الكامل ثم تربط حول الإناء شمعات وتحمله إلى العين حيث تتركه، وكم من الظرفاء تبعوا امرأة وهي تتوجه إلى العين حاملة معها الإناء والدجاجة، وأخذوا الإناء بعد انصرافها، ثم طبخوا الدجاجة وأكلوها"[41].

وهذه النصوص المتعلقة بالجانب الاجتماعي وإن دلت على شيء تدل على مخالطة الحسن الوزان لسكان المدينة، وتعرفه حتى على أغرب العادات والمعتقدات بها.

أما فيما يتعلق بالجانب العمراني فيحصي لنا الوزان في كتابه جميع المظاهر العمرانية بالمدينة سواء كانت قديمة سبقت العهد الإسلامي، مثل المنشآت الرومانية التي لم تزل آثارها باقية، أو المنشآت الإسلامية مثل الجامع والمدارس، وفي هذا الصدد يتحدث في البداية كإشارة عن أبواب المدينة ثم يسترسل في تعداد بقية المنشآت قائلا: "وأبواب المدينة جميلة كبيرة مصفحة تصفيحا جيدا بالحديد،... وهي متحضرة جدا، ومليئة بالدور الجميلة والبناءات المحترمة كالجامع الكبير والمدرستين والزوايا الثلاث والأربع"[42].

ويدلنا هذا النص الأخير على عناية أهل قسنطينة بالعلم والتعليم على الرغم مما كانت تعانيه المدينة من اضطرابات بدليل وجود الجامع وعدد من المدارس والزوايا، وهي تعد جميعا مراكز للتعليم والثقافة.

وعن باقي المظاهر العمرانية، وإن كانت قديمة فيقول الكاتب: "وتشاهد خارج قسنطينة بنايات عديدة محترمة عتيقة، وعلى بعد ميل تقريبا يرى قوس نصر شبيه بالذي يوجد في روما، لكن العامي يظن لحماقته أنه كان هناك قصر تسكنه الشياطين الذين طردهم المسلمون عند مجيئهم إلى هذه البلاد... وبعيدا عن عين الماء الحار- سبقت الإشارة إليها- هناك عين ماء بارد، يوجد بقربها بناء من رخام شاهدت مثله في إيطاليا وفي كل بلاد أوربا، ويعتقد العامة أنه كانت هناك قبل مدرسة آداب كان أستاذها وتلامذته فجرة، فمسخهم الله ومدرستهم رخاما عقابا لهم على ذنوبهم"[43].

وفي الأخير فإن النتائج المتوصل إليها بعد استخراج ودراسة النصوص التي أفردها الحسن الوزان لمدينة قسنطينة في كتابه الجغرافي وصف إفريقيا، وذلك في بداية القرن العاشر الهجري/16م، نجد أن هذه النصوص قد جاءت متنوعة وغنية بالمادة التاريخية التي تمس مباشرة الجوانب الطبيعية والعمرانية والاقتصادية وحتى الاجتماعية والعلمية لمدينة قسنطينة، فقد عالج لنا الكاتب هذه المواضيع بشيء من الدقة، وانفرد بإعطاء معلومات لا نجدها في بقية المصادر، وهي دليل على المعاينة المباشرة التي عرف بها الوزان لمحمل مدن بلاد المغرب في رحلته إلى المشرق.

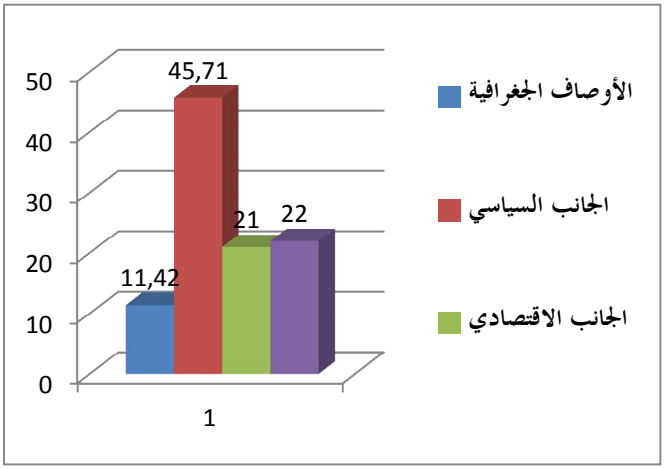

أعمدة بيانية تمثل النسب المئوية لمختلف صور الحياة
التي قدمها كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان لمدينة قسنطينة

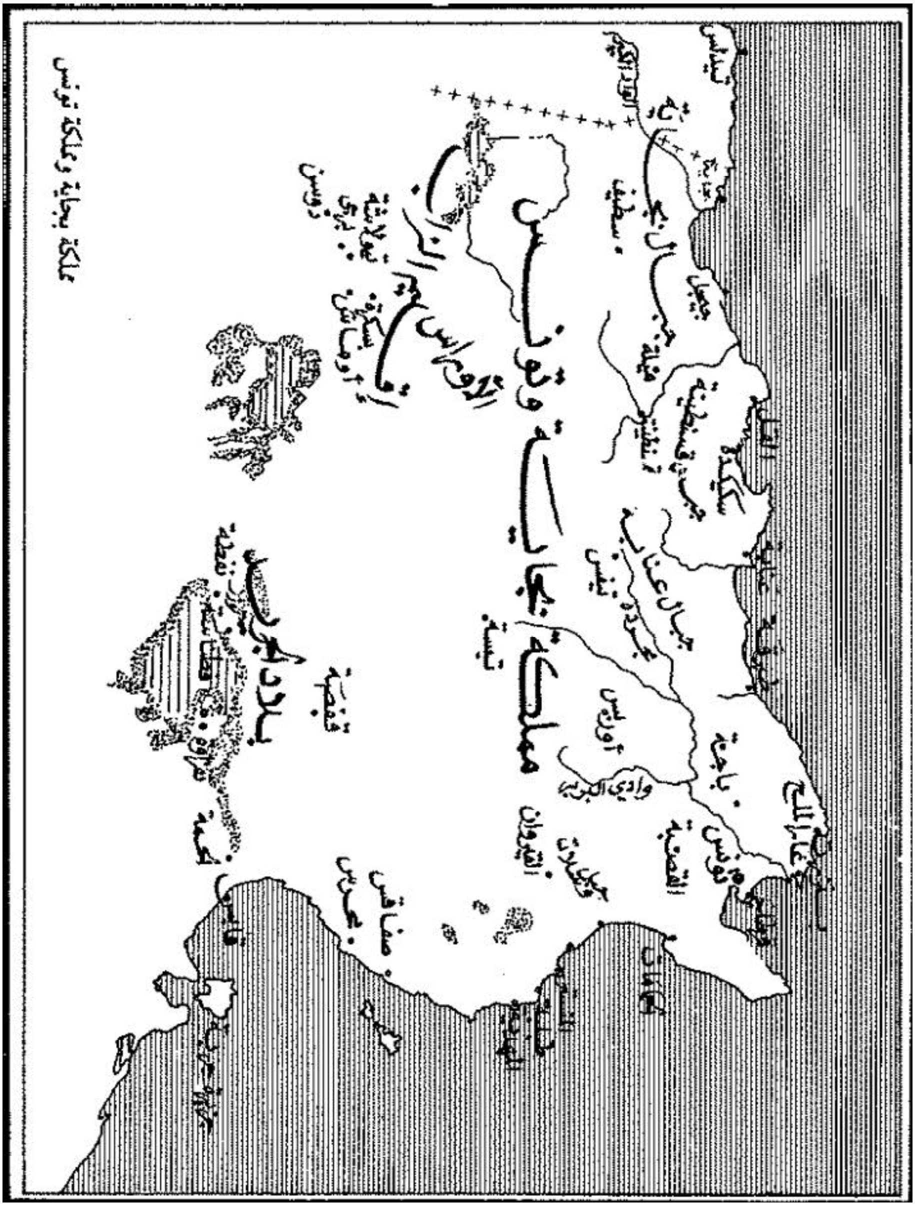

خريطة تمثل موقع مدينة قسنطينة ضمن مملكة تونس خلال ق10هـ/16م.

الهوامش:

1- من بين هذه الدراسات: يسري الجوهري، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2003/محمد محمود محمدين، الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان، دار الخريجي للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 1996/شاكر خصباك، الجغرافية عند العرب، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، د.ت/عمر رضا كحالة، التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلامية، المكتبة العربية، دمشق، 1972/أحمد فؤاد باشا، التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة، دار المعارف، مصر، ط1، 1983/حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1983/أحمد أبو سعد، أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي، دار الشرق الجديد، بيروت، ط1،1961/

Blanche Trapier, Les voyageurs arabes au moyen âge, Librairie, Gallimard, 1937.

2-كلمة يونانية بمعنى صورة الأرض، ويقال جغراويا بالواو: علم يتعرف منه أحوال الأقاليم السبعة وعروض البلدان الواقعة فيها وأطوالها وعدد مدنها وجبالها وبراريها وبحارها وأنهارها ... والجغرافيا علم لم ينقل له في العربية لفظ مخصوص، حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله، كتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1941، المجلد 02، ص590، وكلمة جغرافيا لم تستعمل للدلالة على علم الجغرافيا إلا مؤخرا، وحرى قدماء الجغرافيين على استعمال هذا اللفظ علما على كتابي بطليموس ومارينوس الصوري، واستعملت لأول مرة بمعنى علم الجغرافيا في رسائل إخوان الصفا، لكنها فسرت أيضا في هذا الموضع بأنها صورة الأرض، وظل هذا المعنى شائعا في العصور الوسطى، دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة: محمد ثابت الفندي، أحمد الشنتناوي، ابراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس، وزارة المعارف العمومية، مصر، 1933، المجلد 07، ص10.

3- الرحلة من رحل والرحل: مركب للبعير والناقة، وبعير ذو رحلة ورحلة أي قوة على السير، وارتحل البعير رحلة: سار فمضى، ثم جرى ذلك في المنطق حتى قيل ارتحل القوم عن المكان ارتحالا، والترحل والارتحال: الانتقال، وقال بعضهم: الرحلة الارتحال، والرحلة بالضم، الوجه الذي تأخذ فيه وتريده، والمرحلة: واحدة المراحل، يقال: بيني وبين كذا مرحلة أو مرحلتان، وما بين المتزلين مرحلة، ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت، مج11، صص274-280، انظر كلمة رحلة أيضا الفيروزابادي مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1979، ج3، ص371/الزبيدي محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، مج7، صص340-342.

4- هو الحسن بن محمد الوزان، أبو علي، الغرناطي أصلا، الفاسي دارا، المسمى في أسره يحنى الأسد والمعروف عند الإفرنج باسم ليون الافريقي، جغرافي من العلماء، رحالة، مؤرخ أندلسي، ولد في غرناطة وهاجر طفلا مع أبيه وبعض أقاربه إلى فاس فتعلم بجامع القرويين، كان من أسرة وجيهة، فانتدب أبوه لبعض السفارات والوساطات السياسية، ثم انتدب هو لمثل ذلك، فتيسرت له الرحلة إلى أكثر بلدان إفريقيا الشمالية والشرق الأوسط، حج سنة 921هـ ودخل الآستانة ومصر وطاف بلاد المغرب الأقصى وزار تمبكتو عن طريق درعة وعاد منها عن طريق سجلماسة وحضر حروبا بين البرتغال والشريف محمد السعدي (القائم بأمر الله)، وأسره قرصان من الإيطاليين سنة 923هـ أو 926هـ قرب جزيرة جربة، وأخذوه إلى نابلي وعرفوا أنه من أهل العلم فقدموه هدية إلى البابا ليون العاشر، وكانت للبابا عناية بعلوم العرب، فأكرمه وأدخله في خاصته وسماه "جان ليون" وأشيع أنه تنصر، وما من دليل يؤكد ذلك، وتعلم الايطالية واللاتينية، وكان يحسن الاسبانية والعبرية، وطلب منه البابا أن يترجم رحلته إلى الايطالية ففعل، من مؤلفاته: "وصف إفريقيا"، "مختصر تاريخ الإسلام"، و"مجموع شعري" في الوعظ والزهد، وله رسالة باللاتينية في "تراجم الأطباء والفلاسفة العرب"، كتاب في "العقائد والفقه الإسلامي"، وقد عاد الوزان إلى بلاده حوالي سنة 934هـ/1527م، ومات على أكثر الروايات مسلما في تونس نحو سنة 1552م، خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002، ج2، ص217-218/عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، مؤسسة الرسالة، د.ت، ج 01، ص592.

5- اغناطيوس يوليانوفتش كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1987، ص488-489.---6- علي بن عبد الله الدفاع، رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، مكتبة التوبة، د.ت، ص242.

7- اسماعيل العربي، دور المسلمين في تقدم الجغرافيا الوصفية والفلكية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص208.

8- الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، تحقيق: محمد حجي، محمد الأخضر، الطبعة 02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ج 01، ص: 08.

9- ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخـــي والجغرافي للغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999، ص291.

10- علي بن عبد الله الدفاع، المرجع السابق، ص243.---11-الوزان، المصدر السابق، ص14-15.

12- نفس المصدر، ج 2، ص: 284.---13- ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص ص: 294-.295

14-اسماعيل العربي، المرجع السابق، ص212.---15-كراتشوفسكي، المرجع السابق، ص493.---16- الوزان، المصدر السابق، ج 1، ص15.

17- نفس المصدر، ج 1، ص: 16.---18- نفس المصدر، ج 2، ص: 55.---- 19- البكـــري أبـــو عبيد عبد الله بن عبد العزيـــز بن محمد، المسالـــك والممالـــك، تحقيـــق: جمـــال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003، ج2، ص:245.

20- القـــارة الإفريقيـــة وجزيـــرة الأنـــدلس، مقتبـــس من كتـــاب نزهـــة المشتـــاق فـــي اختـــراق الآفاق للإدريسي أبي عبد الله الشريف، تحقيق اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص166.---21- مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص165.--- 22- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص55-56.

23- هو محمد بن الحسن بن محمد المسعود الحفصي، أبو عبد الله: من ملوك آل حفص بتونس، ولي بعد وفاة عمه (يحيى بن محمد) سنة 899 هـــ، وكان ذكيا فيه خير، إلا أنه تولى والدولة آخذة بالانهيار، فخرج أكثر البلاد عن طاعته، وفي أيامه ملك الاسبان سنة 910 هـــ، وثار بنو عزاب في طرابلس الغرب، فملكوها للاسبان سنة 914 هـــ، وألحقت الجزائر بالدولة العثمانية، واستمر إلى أن توفي بتونس، من آثاره المقصورة الشرقية بالجامع الأعظم وتعرف بالعبدلية نسبة إليه، توفي سنة 932هـــ/1526م، الزركلي، المرجع السابق، ج 6، ص89.---24- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص ص: 56-57.

25- نفس المصدر، ج 2، ص ص: 57-58.---26-نفس المصدر، ج 2، ص: 58.

27- لمزيد من الاطلاع، انظر: روبـــار برنشفيـــك، تاريـــخ افريقيـــة في العهد الحفصي، من القرن 13 م إلى نهايـــة القرن 15 م، ترجمـــة: حمـــادي الساحلي، الطبعة 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ج 1، ص: 276-.277

28-لمزيد من الاطلاع، راجع: البكـــري، المصدر السابق، ص: 244، الإدريســـي، المصدر السابـــق، ص: 167، الاستبصار، ص: 166، ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977، مج 4، ص: 349، محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة 02، مكتبة لبنان، بيروت، 1984، ص ص: 480-481، شمس الدين الدمشقي، كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، د.م، 1923، ص: 237، أبو الفدا، تقويـــم البلـــدان، دار صـــادر، بيروت، د.ت، ص: 139.

29-الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص: 58. ----30-نفس المصدر، ج2، ص: 56. ----31-نفسه، نفس الصفحة.

32-الرحلـــة المغربيـــة، منشـــورات بونـــــة للبحـــوث والدراسات، الجزائر، 2007، ص ص: 58-59.

33- تـــاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السائح، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، المغرب، الإمارات العربية المتحدة، د.ت، ج 2، ص ص: 159-160.----34-المصدر السابق، ج2، ص: 56.

35-قسم الحسن الوزان إفريقيا إلى أربعة أقسام هي: بلاد البربر، ونوميديا، وليبيا، وأرض السودان، والقسم الثاني يسميه اللاتينيون نوميديا ويدعوه العرب بلاد الجريد، حيث ينبت النخيل، يبتدئ شرقا بالواحات، وهي مدينة تقع على بعد نحو مائة ميل من بلاد مصر، ويمتد غربا إلى نون على ساحل المحيط، ويصل شمالا إلى سفح الأطلس الجنوبي، ثم يتاخم رمال الصحراء جنوبا، ويطلق العرب نفس الاسم على جميع هذه البلاد المنتجة للتمر، لأن موقعها واحد، نفس المصدر، ج1، ص28-29.--- 36- عملة إيطالية قيمتها نحو 7 سنتيم- ذهب. ----37-الوزان، المصدر السابق، ج2، ص: 58.

38-نفس المصدر، ج2، ص: 59. ----39-نفسه، ج2، ص: 60. ----40-نفسه، ج2، ص: 56.

41-نفسه، ج2، ص: 59. ----42-نفسه، ج2، ص: 56. ----43-نفسه، ج2، ص ص: 58-59.

ABSTRACT:

The description of Africa "wasf ifriquia" to his author Hassan El Wazzan is considered one among the most important book of Arabic geography of the end of middle age; he devoted a great part in his book to the Maghreb state that he visited, he give a detailed description to the Maghreb state and ther towns especially Constantine.

From the political view he considered that Constantine is the part of the Tunisian kingdom and it's Hafsirullers. The writer gave a detailed description of the political, economic, social and architectural side of Constantine in the beginning of the 10 th century of hegira/16 AD where kings of hafside used to appoint their sons to manage the city.

From the economic side, the author ascertains that the habitants used to perform many crafts as textile and they were good merchants. The city was also rich by its agricultural production.

From the social and architectural, the writer pointed out to the numbers of inhabitants, their tradition and also their buildings like mosques, schools, and zaouias.

Subsequently, we have principal result that Hassan El Wazzan in his book "The description of Africa" gives us clear image of Constantine in the beginning of the 10Th century of hegira/16AD.